في التربية

— ٢ —

مشاكل النمو والصراع النفسي

— ١ —

قبل أن نعرض لما ينتاب الناشيء من أزمات تحول دون نموه نموًّا طبيعيًّا ، نشير الى أنواع المدارس التي تساير مراحل النمو في مصر إشارة عامة . انقسمت مراحل الدراسة الماضية أربعة مراحل ، يزدوج في كل مرحلة منها نوعان من المدارس فرقت بين تزيلها الصروفات . ففي المرحلة الأولى المدرسة الإلزامية ، ورياض الأطفال ، وفي المرحلة الثانية المدرسة الأولية والمدرسة الابتدائية ، وفي المرحلة الثالثة المدارس الصناعية والتجارية والزراعية ، والمدرسة الثانوية ، وفي المرحلة الرابعة المدارس العليا والكليات الجامعية . وقد بذلت مساع جد حديثة لتقريب المستوى المادّي والعلمي لهذه المدارس ، وبدأت بتيسير وسائل التعليم والتوسع في نسبة المجانية ، ومحاولات لجعل التعليم الابتدائي مجانًا ، وتقسيم التعليم الثانوي الى مجاري وصناعي وزراعي ونظري ، وتيسير اختيار السبيل تبعًا للمواهب ، ومواصلة الدراسة منها إلى ما يناظرها في التعليم العالي . وقد تلونت هذه الحركة بالروح الديموقراطية الحديثة والسعي الى تعليم الشعب ، وكان اتجاهها الرئيسي نحو تعميم المجانية وتيسير الدراسة .

وتلت ذلك حركة أحدث منها ، بل تعاصرها ، قوامها السعي إلى ترقية مستوى التعليم من ناحية الكيف ، مع الاستعانة بأساليب التربية وعلم النفس الحديثين ، وتنادي بالمدرسة الواحدة في المرحلة الأولى ، وتحويل المدارس الأولية والالزامية والابتدائية الى مدرسة أولية جديدة تؤدي الى التوسع في التعليم العام ، وفي نفس الوقت الى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بصورة عملية ، وتسعى إلى إعداد مدرس جديد في معاهد جديدة على أسس حديثة . وتلي هذه المرحلة مرحلة دراسة وسطى ، تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة ، ومرحلة الدراسة الثانوية ، وربما كان من النافع تنويعها فتتسع للمدرسة الثانوية التي اقترحها رجال المدرسة الأولى ، فتتصل الناشيء بالجامعة . على أن مشكلة المناهج والكتب الصالحة وطرق التدريس

لم تحتل بؤرة الاهتمام بعد ، وهي في حاجة الى جهود كل من له صلة بالتربية ، وعقد مؤتمرات عامة ، وتجربة المشروعات في نطاق أوسع مما تجرب فيه اليوم بالمدارس النموذجية ، ومن الممكن تحسير طرق المشروعات في المرحلة الأولى ، وطرق المشاكل وأساليب مدارس الفن في المدارس الثانوية والمثل الأعلى للنمو القويم إشباع حاجات الناشيء في كل مرحلة من المراحل ، وإنماء ذاتيته تبعاً لمواهبه إذا أردنا لمجتمعنا هذا وفيًّا مثاليًّا . ومن المغالطة الاحتجاج بقلة المال ، فباب الضرائب مفتوح ، وفي مصر ثروات مستكرة وإنما جمعت من مال المستهلك والعامل والصانع والفلاح والقصب المصري ، ولا يستقيم القصب ويعالج بابه من فقر وجهل ومرض إلاَّ بالتربية السليمة ، وأنه لوهم أن يعتقد فرد أن التربية الصحيحة ستضر بمصالح طبقة من الطبقات .

— ٢ —

وقد يحدث ألاَّ ينمو الطفل نموًّا سليماً طبيعيًّا ويجتاز مرحلة الى أخرى ، فقد يقف عند مرحلة لا يتعداها ، وقد يحدث له نكوص وارتداد الى مرحلة سابقة .

يدل على ذلك ما وصل اليه فرويد ومدارس التحليل النفسي من نتائج البحث في عالم اللاشعور . على أن فرويد يرجع أسباب الشذوذ الى الغريزة الجنسية ، ولا يوافق مكدوجل على ارجاع كل المشاكل الى هذه الغريزة وحدها ، وإنما يرجعها إلى ما يسميه الدافع الهورمي ، أي الدافع للحياة ، ويقابل الليبدو عند فرويد ، وهو يشمل الدوافع الغريزية كلها ، بما فيها الغريزة الجنسية ، ومناطق الشعور ومناطق اللاشعور على السواء . أما رجال التحليل النفسي ، فيرون أن الشعور وميدان العقل والخبرات الفردية إنما هي مظهر الحياة النفسية وسطحها بينما الجوهر الخافي الذي يسير الحياة هو اللاشعور ، ولا يدرك كنهه الاَّ بالتحليل النفسي والتأمل الباطني على أن في هذا التفسير للحياة النفسية ما يشبه الدوافع الحية التأمية (الهورمية) والاحتفائية (المسية) عند مدرسة مكدوجل ، فأساس الحياة النفسية قدرة على النمو واستعداد للاحتفاظ بالخبرات ، ينتج عنهما مركبات أو عقد تنشط في اللاشعور وترى هذه المدرسة أن العواطف مركبات تكونت بهذه الطريقة ، وتلونت بألوان وجدانية نزوعية اتصلت بفكرة ، وتنتظم هذه العواطف تحت سيطرة عاطفة الذات .

ولو حدث النموّ يسيراً ناعماً لما كان هناك شذوذ ، فلو قام اللاشعور أو البناء النفسي بوظيفته بانسجام أدّى الى انسجام السلوك لما الإنسان نموًّا مثاليًّا ، وإنما توجد ميول خاصّة تتمرد ولا تتعاون مع غيرها من النزعات تحت سيطرة عاطفة اعتبار الذات ، أو الذات المثلى . ولا تبقى هذه النزعات المتمردة راكدة بل تنشط في اللاشعور وتنازع غريزة

اعتبار الذات وتظهر آثارها في السلوك وتؤدي إلى انقسام الشخصية ونموّ سلوك شاذ. ويحس الفرد بمثل هذا الصراع في قرارة نفسه بين شهوات البدن والروح، وتنازع انفعالات الغضب والخوف، والطرف وحب الاستطلاع. على أن هذه الصور بسيطة زائلة مؤقتة بينما يوجد انفعالات وعواطف دائمة الطرب. وعلاجها هو اكتشافها وتحليلها ومحاولة التوفيق بينها حتى تنسجم تحت طاقة الذات المثلى. ولا صلح دون مفاوضة، كذلك لا سلامة نفسية بدون معرفة النزعة الشاردة والتوفيق بينها وبين الذات المثالية، وتلك مهمة المحلل النفساني وميدانه هو تفسير الأحلام، وعثرات اللسان، وتداعي الكلام الحر، وغير ذلك مما يكشف للفرد نزعاته المكبوتة الباطنية، وبقدر ما يوفق بينها يحدث الاتزان في الشخصية. أما إذا اشتد بأس العقد المكبوتة، وزادت سطوتها فظهرت في السلوك، ولم تعد الذات تسيطر عليها، فيحدث في النفس ما يشبه حرب العصابات، وتسعى العقد المكبوتة إلى الظهور على السطح، وإذا زاد بأسها خلقت شخصية أخرى مركبة قوامها النزعات الشاردة فتنقسم شخصية الفرد إلى شخصيتين، وتتناوب مع الشخصية الطبيعية الظهور والسيطرة. وفي الحالين يقاسي الفرد من المجهود النفسي الذي يبذله بكبت العقد التي تظل في اللاشعور تنتظر الفرص للظهور.

ويفسر فرويد اللاشعور تفسيراً رمزيًّا تصويريًّا، فيجعل منه حجرة انتظار كبيرة تؤدي الى حجرة صغيرة هي ما قبل الشعور. ويزدحم كل أنواع المشاعر التي تريد الدخول في حجرة اللاشعور، وتسعى الى الدخول في حيز ما قبل الشعور، لولا الرقيب الذي يختار ما يصل الى حيز الشعور، بينما يمنع المشاعر الأخرى فتكبت. على أن أحدها قد يتنكر في ثوب ما ويخدع الرقيب ويدخل الى حيز الشعور. وهذا التفسير فرض نظري خالص، فالتشبيه مضلل إذا صار سيداً لا خادماً، أما اذا اعتبر فرضاً كتفرد من الخبرة والعقد النفسية والشعور، كان معناه ما يأتي: تنشط العقد المكبوتة في النفس وتصطرع لتظهر في حيز الشعور، فيضعف تكامل الشخصية وانسجامها، وتستقل العقدة النفسية ولا تتعاون مع الشخصية. وقد تنشط وتظهر في ميدان الشعور في ثوب بريء لا يكشف عنها مباشرة، وبذلك يكون لها معنىً ورمزًا. وتكثر هذه الرموز في الاحلام إذ ينام الرقيب فتنطلق العقد المكبوتة وتمرح في الشعور وتوجه السلوك سافرة غير متنكرة، ولكن تنافي هذه الأحلام معاييرنا الخلقية الاجتماعية، لذا ينتابها النسيان. وقد تظهر العقد في الأحلام بصورة رمزية، ويرى المحلل أنّ هناك رموزاً عامة مشتركة بين الأحلام، فالملك يمثل الأب، والشمس والقمر والكواكب تمثل الأب والأم والإخوة كما ورد في حلم يوسف.

— ٣ —

وقد ألقت أبحاث فرويد وينج وأتباعهم ضوءاً على الأحلام ، فكثر أحلام الخوف في مراحل الطفولة والمراهقة ، وتفسر بأنها خوف من عقد مكبوتة تولك أن تكشف عن حقيقتها فتفزع الشخصية الطبيعية ، وتتدخل في اليقظة المناسبة . والسير أثناء النوم رمز للصراع الذهني ، وتعتزل فيه الشخصية الرئيسية مكانها وتهبه للشخصية الثانية ، والقهقهة في الحديث دليل على صراع عقلي ، ربما سببه خوف الأب ، الذي قد يظهر في صورة استعمال الطفل ليده اليسرى رغبةً في المخالفة . ويرى فرويد أن النسيان وعثرات اللسان وتجنب تعبيرات خاصة مظاهر الكبت ، كذلك المبالغة في العناية بشيء ، وسقوط أداة ، وقعة تصيب الخطاب عفواً ، وخطأ في عبارة ، كلها عقد أسلمت والرقيب نائم ، أو تنكرت وخدعته فظهرت في الشعور ودلت على دوافع خفية . ومظاهر ذلك في المدرسة عبث التلميذ بكراسته وهروبه من المدرسة ، وعثرات لسانه . وكل مظاهر الشذوذ رمز لا شعوري لمدائه للمدرسة والنظام والدرس ، ومن يحضر متأخراً عن ميعاده يعبر تعبيراً لاشعورياً عن كبت في نفسه رغم اعتقاده بأنه لا يقصد الاهمال أو المعاكسة . وقد يدل الحماس الزائد المبالغ فيه على عكسه ليغطي الفرد به ما يكبت في لاشعوره ، فمن ذلك النظافة المبالغ فيها ، التي قد تغطي شعوراً بإثم باطن ، ومنه محاولة عمل يفوق الطاقة تعويضاً عن ضعف أو انحطاط ، ومنه قسوة النقد على الغير تغطية لخطأ مكبوت . ولكل من يسعى الى علاج الطفل المشكل أن يرجع الى معين اللاشعور وصور الصراع النفسي ، وتتعدد هذه المعاكل في مراحل المراهقة ، فقد يفشل المراهق في التكيف مع العالم الخارجي ، فيشغل بما في عالمه النفسي وينطوي على ذاته أكثر مما يتصل بالعالم الخارجي ، ونتيجة ذلك أن يكوّن فكرة سيئة عن العالم ، وينغمس في أحلام اليقظة التي تنسج له عالماً وهمياً يحيا فيه وفق رغباته . وكثيراً ما يشكو المراهق من التعب ، والأمراض الوهمية ، ويسعى للنوم ، وذلك تعبير عن عجزه عن مجابهة حقائق الحياة ، ورغبته في الانسحاب من معركتها .

***

وليست الراحة مهرباً له من معاكله ، وإنما العلاج إشراكه في النشاط الخارجي ، والرياضة دواء لمعاكله النفسية ، تفيها مجال يعبر فيه المراهق عن ذاته ، ولا بدّ من عناية خاصة لمشاكله المعقدة ، فربما انتهى الصراع النفسي بالجنون .

وقد يؤدي الفشل في التكيف إلى نكوص ورجوع الى مرحلة أولى ، يشعر الفرد بأنه

كان أكثر راحة فيما منه في حاضره ، ويظهر ذلك في التعلق بالقديم ورفض استبداله بالجديد وربما تحمل الآباء مسئولية ما يحدث من وقوف نمو أبنائهم عند مرحلة أو نكوصهم إلى مرحلة أولى إذ يؤدي بهم الحنان الى خلق ابن متواكل يعتمد عليهم في كل صغيرة وكبيرة ولا يسمحون له باستقلال في الرأي والتفكير . ومن مهمات التربية أن تساعد الناشيء على الاستقلال في كل المشاكل ، والاعتماد على نفسه وتفكيره في مجابهة الحياة .

* * *

ومرحلة المراهقة هي مرحلة الشذوذ والاجرام إذا اشتد الفشل في التكيف ، فيحدث نكوص يرجع بالمراهق الى مستوى الطفل الغريزي ، فيدع غرائزه تعبر عن نفسها تعبيراً غير اجتماعي . وربما كان الغريزة الجنسية أثر في أخطر الجرائم ، وربما كانت الجريمة مظهراً لغريزة السيطرة ممكوساً بعد أن فشل صاحبها في توجيهها توجيهاً اجتماعيًّا ، فقام المجتمع مقام الأب المكروه ، دون أن يدري المجرم سبب ارتكابه لجريمته . وربما كان الهرب من المدرسة مظهراً للتمرد على سلطة الأب ، أو رغبة في الاستقلال أو السيطرة ، وربما كان مظهراً للبقاء تحت كنف الأبوين أو ثورة عليهما . كذلك الكذب فهو مظهر لعقدة مكبوتة في الأعم الأغلب . والسرقة مسلك شاذ للتعبير عن غريزة حب التملك ، وربما كانت مظهر ثورة على الأبوين أو المجتمع عليهما . وعلاج ذلك كله إعلاء الغريزة وتوجيهها توجيهاً اجتماعيًّا مرغوباً فيه ، وعلى المربين أن يوفقوا في المدرسة مجال إعلاء هذه الميول ، ولا ينفع العقاب كما يضر ، وإنما يزيد في دفع المذنب إلى جانب العداوة للمجتمع ، والكبت في التربية من الأمور الخطرة الخاطئة ، وإنما يوفر المربي المجال لكل الدوافع حتى يعبر عن نفسها ويشرف على ذلك إشرافاً يصحبه الحنو والعطف وصدق التفهم . وإذا أردنا أن نربي شخصيات مثالية ، تخلق مجتمعاً راقياً تقيًّا نبيلاً متحرراً ، فني مرحلة المراهقة بدء الطريق .

* * *

فهل تحبب مدارسنا الثانوية بإداراتها ونظمها ، ومناهجها وكتبها المراهق فيها ؟ وكم من أبنائنا يجتاز هذه المرحلة ولم يعترضه مظهر من مظاهر الشذوذ ؟ وما هي أسباب هذا الشذوذ ؟ إن في ذلك مجال لتفكير فيه الآباء والمربي والمصلح .

محمود عامر شوكت